

حقائق وخلفيات الظاهرة الاستعمارية في تونس من خلال كتاب تونس الشهيدة للشيخ عبد العزيز الثعالبي

أ. أحمد طرفاوي
السنة الخامسة دكتوراه في التاريخ
الحديث ولمعاصر - المدرسة العليا
للأساتذة ببوزريعة - الجزائر

- الملخص: يعد هذا العمل محاولة لتسليط الضوء على إحدى جوانب مشروع مناهضة الاستعمار للشيخ عبد العزيز الثعالبي (1875-1944) من خلال كتابه تونس الشهيدة ، والذي نشره عام 1920م ، حيث عمد من خلاله على تشريح نظام الحماية الفرنسية الذي فرض على تونس عام 1881. وتناولنا هذه المسألة من حيث تبيان طبيعة المسائل التي عالجها الشيخ الثعالبي، حيث كشفنا قضية حرصه على إبراز المنطلق الديني للاستعمار الفرنسي في تونس والمتمثل أساسا في التزعة الصليبية والتي اتخذت اشكالا مختلفة ، كانت تؤول كلها في النهاية إلى التضييق على الدين الاسلامي والتمكين للكنيسة ، كما وضحنا كيف أن الشيخ الثعالبي يكشف مختلف مظاهر التمييز العنصري ومختلف أشكال الارهاب والاستغلال الاستعماري المنظم.

Résumé : Ce travail est une recherche le but de faire la lumière sur un aspect du projet anti-colonialiste du cheikh Abdelaziz Thaâlbi (1875-1944) à travers son livre " La Tunisie martyre " publié à Paris en 1920. Le livre de "La Tunisie martyre" a exposé le système de la gérance sous l'égide d'un protectorat français sur la Tunisie et ce que le traité de 1881 a illustré , en terme d'éclaircir la vérité de ce système étant colonisateur imposé sur le peuple tunisien. Il apparait d'une façon claire à travers ce livre que cheikh Thâalbi s'intéressait à démontrer la dimension des croisade sur le phénomène de la colonisation de la Tunisie, qui voulait sincèrement détruire la religion Islamique. Thâalbi a fait valoir que la dimension des croisade de la colonisation a fait d'elle-même un phénomène raciste , agressive et exploitante .

نظام حكم البايات جزء من ذلك التنظيم⁸

مقدمة

الشيخ عبد العزيز الثعالبي (1875-1944) شخصية مغربية وإسلامية غنية عن التعريف¹ ، فهو من أصول جزائرية ، لكنه ولد وعاش في تونس ، اهتم بالنشاط الاصلاحى والسياسى فى تونس منذ 1895 ، وكان قطبا فاعلا فى حركة الشباب التونسى² ، ثم فى الحزب الحر الدستورى التونسى³ وكانت له مؤلفات عديدة⁴ ، وأبرزها الكتاب الذى نشره عام 1920⁵ بعنوان "تونس الشهيدة" (La Tunisie martyre.

Ses Revendications)⁶ ، وكان ذلك أثناء وجوده بباريس عقب الحرب العالمية الأولى، وقد تعرض هذا الكتاب إلى الاستعمار الفرنسى لتونس تحت غطاء نظام الحماية الذى فرض عام 1881 بموجب معاهدة باردو⁷، وهو النظام الذى تعزز أكثر فى تونس بموجب اتفاقية 1883 ، وذلك بعد تدعيمه بجهاز ادارى متكامل التنظيم تحت اشراف السلط الفرنسىة والذى يمثلها المقيم العام الفرنسى بتونس ، ومن خلاله أيضا أصبح

وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي قد عكف على الاهتمام بدراسة وتشريح الظاهرة الاستعمارية عموما ، لكنه اهتم بشكل خاص بنظام الحماية الفرنسية بتونس من خلال الكتاب المشار إليه آنفا ، فماهى طبيعة الحقائق التى كشف عنها الثعالبي حول الظاهرة الاستعمارية بتونس ؟ ، وما مدى قدرته على كشف خبايا وخلفيات تلك الظاهرة ؟ .

1- الكشف عن الروح الصليبية

للاستعمار الفرنسى فى تونس .

يظهر بشكل جلي من خلال كتاب تونس الشهيدة مدى اهتمام الثعالبي بتبيان البعد الصليبي لظاهرة الاستعمار الفرنسى بتونس ، وبهذا الصدد يقول: ((ومهما يكن نفورنا وتأسفنا فإن من واجبنا أن نوضح الصفات الحقيقية للاستعمار الفرنسى بالبلاد التونسية ، إنه صراع حتى الموت وحرب صليبية موجهة ضد مجتمعنا))⁹ .

وكان استدلال الثعالبي على هذه

وفي مقابل محاربة التعليم العربي الإسلامي بين الثعالي سياسة الفرنسة التي طبقتها حكومة الاستعمار منذ السنوات الأولى للاحتلال عن طريق تعليم اللغة الفرنسية وذلك بالتوازي مع إضعاف دور المعهد الصادقي¹³ وتوجيه طلبته إلى معهد القديس شارل بالعاصمة تونس والذي يديره الآباء البيض¹⁴.

ومما كشف عنه أيضا هو أن عملية الاستيلاء على الأرض تحمل في طياتها أبعادا صليبية حيث أن فقدان التونسيين لأراضيهم وممتلكاتهم يصاحبه زوال معالم المدنية الإسلامية ويكون البديل مستوطنات ومعابد للمعمرين المسيحيين ، ((ففي كل يوم تزول القباب والمساجد لتحل محلها الكنائس وإذا فكرت مجموعة من التونسيين القاطنين قرب مركز من المراكز الاستعمارية في بناء بيت للصلاة فإن كافة الساكنة من المعمرين يرفضون ذلك بشدة وإذا كتب للمسجد أن يقام فعلى بعد مسافة محددة من الأماكن الآهلة بالسكان))¹⁵ وبرهن من زاوية أخرى على أن قواعد الليبرالية الاقتصادية للمستعمر

المسألة من منطلق الممارسات الأولى للاستعمار الفرنسي بتونس ، والمتمثلة في استهداف أملاك الأوقاف كونها تشكل العمود الفقري للمساجد ومدارس التعليم العربي الإسلامي¹⁰.

كما ربط بين الروح الصليبية للاستعمار والسياسة التعليمية لهذا الأخير إذ كشف بأن الهدف من سيطرة الاستعمار على التعليم هو امتصاص الذاتية الإسلامية وفسح المجال أمام المدارس التبشيرية التي ترعاها الإرساليات المسيحية¹¹.

وفي هذا الإطار أيضا كشف عن السياسة الهادفة إلى القضاء على اللغة العربية باعتبارها عاملا من عوامل المحافظة على الهوية الإسلامية والتي من شأنها جعل عملية تنصير و استعمار البلاد من الصعوبة بمكان ، وعلى هذا الأساس أبرز واقع التعليم العربي منذ سنة 1881 ، والذي تعرض إلى أقصاى ضروب التهميش والإقصاء حيث لم تخصص له حكومة الحماية ولو قدر قليل من ميزانيتها المالية¹².

على تونس باعتبار قرطاج عاصمة قديمة للمسيحية في شمال إفريقيا، والاكثَر من ذلك هو أن هذا المؤتمر قد تزامن مع الاحتفالات التي قام بها الاستعمار الفرنسي بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر (1830)²⁰.

وأوضح الثعالبي أيضا بأن الاستفادة من - منافع الاستعمار - لا تشترط أن يكون الإنسان فرنسيا فحسب بل ينبغي أن يكون مسيحيا ، لأن المسلم في نظرهم ينتمي إلى جنس دنيء وحقير ، وقدم حول ذلك شهادات من الواقع عندما يذكر مثلا بأن مواطنا تونسيا لم يسمح له بالاستفادة من التشريع المتعلق بأراضي التعمير لسبب وحيد يتمثل في معتقداته الدينية الإسلامية²¹.

2- إبراز ظاهرة التمييز العنصري

الاستعماري

كشف الثعالبي بأن البعد الصليبي للاستعمار جعل منه ظاهرة عنصرية ، ومن هذا المنطلق جاء تفسيره لنظام حكومة الحماية الفرنسية بتونس من حيث أن هذه الأخيرة انتهجت سياسة ترمي إلى

جاءت لتستجيب هي أيضا لتطلعات الصليبيين ، فتحت غطاء حرية التجارة أقيمت الحانات بالأحياء التي يقيم بها التونسيون بالقرب من المساجد¹⁶.

وبين الثعالبي حقيقة سياسة التجنيس¹⁷ التي طبقتها أوروبا الاستعمارية وبالأخص فرنسا في أقطار شمال إفريقيا حيث أوضح بأن هذه السياسية ما هي إلا وسيلة من أجل القضاء على الكيان الإسلامي وذلك من منطلق نظرة الاستعمار إلى المنطقة من حيث أنها بلاد نصرانية خاضعة للكنيسة الكاثوليكية قبل الإسلام ، ونقل الثعالبي ما كانت تتداوله صحافة الاستعمار ورجال الكنيسة من أن الهجمة الصليبية ضرورة حتمية لتكون جوابا على هجمات الإسلام المتوالية على الكاثوليكية¹⁸.

وان أهم ما يؤكد هذه النظرة الذي ذهب إليها الشيخ الثعالبي هو انعقاد المؤتمر

الأفخارستي (eucharistique)¹⁹ بتونس في ماي 1930 ، وهو مؤتمر كنائسي عالمي نظمته الكنيسة للدلالة على أن تونس بلاد مسيحية ، ووقع الاختيار

أشد خطورة ، وأن هذه الخطورة لا تكمن في التقصير المادي في حق التونسيين فحسب ، بل تكمن في الدلالات الرمزية والمعنوية التي تكرر النظرية السالفة الذكر ، ومن بين الوقائع التي استدلت بها هي طريقة تنظيم التلاميذ في المدارس العمومية الفرنسية بتونس²³، حيث كانوا يقسمون إلى عدة صفوف ، فيمر حسب الأولوية التلاميذ الفرنسيون أولا ، ثم الايطاليون ، ثم اليهود التونسيون ، ثم في آخر المطاف التونسيون المسلمون ، والغاية من ذلك التأكيد على أن هؤلاء ليسوا من طينة واحدة و هذا التمثيل الذي اعتبر به الثعالي يبدؤ انه ليس عفويا ، فقد يظهر بأنه تنظيم تربوي بسيط ، غير أنه يحمل دلالات عميقة كونه يغرس في نفوس الأجيال الناشئة من التونسيين الإحساس بالضعف والانتقاص ، وينمي فيهم القابلية للخضوع ، في حين ينمي نزعة التفوق لدى المتدربين الأوربيين ليكونوا خير خلف لأسلافهم . ومن جهة أخرى يكشف الثعالي بالاعتماد على الإحصاءات الرسمية بأن السياسة التعليمية الفرنسية بتونس

هدفين اثنين)) فهي من جهة سياسة إرهابية اغتصابية تفقرية تعسفية ، ومن جهة أخرى سياسة امتيازات ونهب وقد نشأ عن ذلك انقسام السكان انقساما لا رجوع فيه إلى طبقتين : طبقة مدللة ذات امتيازات وهي صاحبة القول الفصل فيما يتعلق بالقرارات الحكومية ، وبالتالي فيم يتعلق بمصير البلاد فهي إذن - الطبقة الغالبة - أو الجنس الأعلى الذي يضم الفرنسيين وإلى حد ما الأوربيين ، وطبقة أخرى ضعيفة ومستغلة ومضطهدة ومحرومة من جميع الحقوق المعترف بها لبني الإنسان ، فهي إذن - الطبقة المغلوبة- أو الجنس الأسفل ، وقد ولدت هذه الوضعية في الطبقة الأولى القسوة والوقاحة واحتقار كل ما هو أهلي²² .

وفي هذا الإطار عرض الثعالي الدلائل والشواهد التي تؤكد بان الاستعمار كان يطبق النظرية العنصرية المبنية على فكرة انتقاص الجنس التونسي ، فكشف عن مختلف مظاهر التمييز العنصري ، ومن ذلك ما أورده بالنسبة لميدان التعليم الفرنسي بتونس وبشكل يرمي إلى تأكيد فكرة أن هذا الأخير كان

الفلاحية ، فالأولى خاصة بالشبان القادمين من أوروبا وآسيا وتحظى بإمكانات هامة وميزانية ضخمة وتكتسي صبغة دولية ، أما الثانية فخصصت لأبناء تونس وكانت ضعيفة الإمكانيات لا فائدة منها²⁸ .

وتعرض الثعالي إلى حال الحريات والحقوق ، وخلص إلى فكرة أن المجتمع الأوربي من المعمرين يتمتع بكل الحريات والحقوق ، أما التونسي فيعيش بين مواطنيه في بلاده ذاتها عيشة الأجنبي غير المرغوب فيه²⁹ ، وفي هذا الإطار يبين مظاهر سمة الانتقاص الجنسي التي تلاحق التونسي في العدالة عندما يتعلق الأمر بالخصومات مع الأجانب ، وكشف عن سياسة المجالس البلدية والتي تقوم على أساس خدمة مصالح الأحياء التي يقيم فيها العنصر الأوربي في حين تهمل الأحياء الفقيرة التي يقيم بها التونسيين لتعيش حالة التدهور والاندثار³⁰ ، وتطرق إلى مظاهر العنصرية في الميدان الصحي حيث أن المستشفيات التي أقامتها حكومة الاستعمار بتونس كانت لا تقبل إلا المرضى من فئة المعمرين ، ثم إن هذه

كانت تقوم أيضا على أساس ألا تقوم نخبة تونسية مثقفة عن طريق الكليات الأوربية ، وهو ما يفسر محدودية التعليم الثانوي والعالي بالنسبة للطلبة التونسيين وذلك لغاية تتمثل في المحافظة على التفوق الفرنسي²⁴ .

وبين أيضا بأن التعليم المهني لم يكن هو الآخر بعيدا عن سياسة التمييز ، ومن ذلك أنه ضرب مثلا عن مدرسة "إميل لوبي" (Émile Loubet)²⁵ ، وهي مدرسة مهنية دشتها السلطات الاستعمارية بتونس في 03 أكتوبر 1905²⁶ ، حيث ضمت بعد شهر من افتتاحها 165 تلميذ فرنسي من المعمرين و 13 أجنبي و 16 من التونسيين فقط من بينهم 08 يهود ومن خلال هذه الأرقام يتضح مدى التهميش والتمييز الذي كان يتعرض له التونسي المسلم الذي يمثل الأغلبية من حيث عدد السكان²⁷ .

وفي هذا الإطار استدل أيضا بواقع التعليم الزراعي بتونس ، والذي كان يتم في مدرستين مطابقتين للعنصرية وهما المدرسة الاستعمارية للزراعة والمدرسة

الحكومة أهملت المستشفى الصادقي³¹ مما انعكس سلباً على الواقع الصحي للمجتمع التونسي³².

وعلى صعيد ميدان التشغيل فقد بيّن الثعالي مختلف ممارسات الإدارة الاستعمارية والتي تنطلق من مبدأ إقصاء كل الفئات من "الأهالي" وكل مترشح لتولي منصب إداري تتوفر فيه المؤهلات الكفيلة بالدفاع عن مصالح وطنه، وإذا ما تم قبول تونسي ما في الوظيفة العمومية فإن ذلك يكون على أساس أفكاره ومعتقداته، غير أن التونسي- المنتقى والمخلص- للإدارة الاستعمارية لا يمكنه في كل الأحوال أن يرقى إلى الوظائف السامية ثم أن الموظف التونسي لا يحظى بالمرتب نفسه الذي يتلقاه نظيره الفرنسي مما يؤدي إلى تدهور مستواه المعيشي والأخلاقي والثقافي³³.

و عَرَضَ أيضاً حالة الإقصاء التي تعرض لها العامل والفلاح التونسي مقابل الامتيازات المتعددة التي يحظى بها الأوربي بسبب نظام النهب الاستعماري الذي سنته حكومة الحماية عبر مصادرة الأراضي ونظام فرض الضرائب، وغياب

العدالة، وهي كلها أدوات حولت الفلاح التونسي من سيّد صاحب للأرض إلى مجرد عامل بسيط، بل إلى عبيد في إطار ما يعرف بنظام "الخماسة" والذي يعني حصول الفلاح التونسي على خمس الإنتاج لكن ذلك لا يعني شراكة مع المعمر الأوربي ولكن المقابل الذي يحصل عليه التونسي جراء العمل الإجباري الذي يؤديه، بل إن الخمّاس يتحول إلى عامل دون مقابل إذا حصل على تسهيلات مالية من -سيده- وعجز عن دفعها³⁴.

ووضح الثعالي كيف أن سياسة الاستعباد العنصرية كانت مقننة من خلال إظهاره لأمر مؤرخ في 04 أفريل 1884³⁵ صادر عن ممثل رئاسة الجمهورية الفرنسية بتونس ينص في فصله الأول على سجن كل من يرفض إنجاز عمل تعهد القيام به كالخمّاس أو المستخدم إلى غاية موافقته على الوفاء بالتزاماته.

وبيّن في هذا الإطار أنه إذا كان السجن هو المصير الذي اختاره الخمّاس فإن ذلك لا يخلصه من العبودية، لأنه سيُجرّ بالقوة تحت مراقبة حراس السجن

كما اعتمد على التصريحات والإعلانات التي تدلي بها الشخصيات الاستعمارية حول وضع تونس، من بينها "خطاب جول فيري" (Jules Ferry)³⁷ و الذي قدمه لمجلس النواب في افريل 1884³⁸ من طرف ، ومما كشف عنه في هذا الصدد هي تلك التوجهات الاستعمارية الرامية إلى إفناء شعب بكامله مستندا في ذلك إلى الأرقام الخاصة بعدد الوفيات في مدينة تونس خلال الفترة الممتدة ما بين (1910-1914)³⁹ ، والتي فاقت في مجملها عدد الولادات ، وأشار إلى ما دفعته تونس من آلاف الضحايا بعد تجنيدهم من طرف سلط الاحتلال في إطار الحرب العالمية الأولى⁴⁰.

وعن التكلفة الباهظة التي دفعها الشعب التونسي أثناء الحرب العالمية الأولى جراء الموقف العدواني والعنصري للاستعمار يقول الثعالبي ((إن هذه الحرب خرجت منها فرنسا منتصرة ، أما تونس فقد أنهكتها هذه الحرب بعد ثماني سنوات من الحصار ، وتم فيها تجنيد 65000 من أبنائها في الحرب منهم

ليعاود العمل في حقول المعمرين ويتعرض لأبشع أنواع التمييز العنصري³⁶ ، وكشف من زاوية أخرى كيف أن الدولة والبلديات والمؤسسات العمومية تتحالف ضد العامل التونسي لإبقائه في حالة البؤس لضمان مستقبل المعمرين ، ذلك أنها لا تمنح أجورا تنافس الأجور التي يدفعها المعمر بل هي دائما دونها.

3- تبيان سياسة الارهاب والاستغلال لاستعماري المنظم.

وبالتوازي مع تبيانه لسياسات نظام حكومة " الحماية " المؤسسة لنظام العنصرية والعبودية في تونس حرص الثعالبي على إثبات فكرة أن الاستعمار ظاهرة عدوانية واستغلالية منظمة عبر المستويات المختلفة ، واعتمد في ذلك على أحداث بعينها عاشتها تونس زمن الحماية الفرنسية ، ومقارنا ذلك بواقع تونس قبل الاحتلال ومستندا على الصحافة الفرنسية بتونس والإحصاءات الرسمية بالسنوات والأرقام أوامر ومواثيق أصدرها الاستعمار بتواريخ محددة لا يتسع المقام هنا لعرضها .

45000 لقوا حتفهم أو أصيبوا بجروح وفقدت الأمة الكثير من عناصرها السليمة ((⁴¹.

ومما يلاحظ أن الثعالي وظف مصطلحات تتماشى مع الطبيعة العدوانية لظاهرة الاستعمار حيث وصف النظام الاستعماري بالنظام الإرهابي⁴²، من منطلق أن القاعدة الأساسية لسياسة - الحماية - بأكملها تقوم على الاضطهاد والإرهاب الموجهين ضد المجتمع التونسي عن طريق الكاتب العام للحكومة التونسية⁴³ والذي يجمع بين مختلف السلطات، الإدارية منها، والتشريعية والقضائية، هذا وان فقدان كل ضمان بالنسبة للفرد يمنح هذا الجهاز سلطة مفرطة، مكنته من فرض العقوبات الفردية والجماعية القاضية بسلب الحرية وذلك بدون محاكمة بغرض استعباد الشعب التونسي⁴⁴.

وعلى هذا الأساس صور الثعالي النظام القضائي في تونس على أنه عبارة عن هيكل مريع يسوده الظلم وفقدان الأمن، وأنه من أقوى وسائل الحكم والاضطراب الاجتماعي، فلا وجود

لنظام قضائي حقيقي، والقاضي هو مجرد عون لإدارة الحماية وأداة من أدوات الاضطهاد⁴⁵، فكان التونسيون يساقون إلى المحاكم والسجون تحت نيل الضرب، وهم خليط من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وليس من حقهم الدفاع، وعلى هذا الأساس فان احترام الذات البشرية لا يفكر فيه احد وكذلك هو الشأن بالنسبة إلى مفهوم الحرية الفردية⁴⁶.

وبين دور الجهاز القضائي في تطبيق السياسة العدوانية المنظمة وخاصة فيم يتعلق بدوره في إضفاء الشرعية القانونية لعملية نزع ملكية الأراضي من التونسيين من خلال تسجيلها باسم حكومة الاحتلال، واعتمد في ذلك على النصوص والأحكام التي كانت تصدرها المحاكم الفرنسية بتونس بشأن التراعات العقارية، ومن الأمثلة التي أوردها نص الحكم

الصادر بتاريخ 19 ديسمبر 1903⁴⁷، والذي مكن حكومة الاحتلال من الاستيلاء على الأراضي التي تحوي مناجم الفوسفات والتي تعتبر أهم ثروة مكتشفة في تونس⁴⁸.

الاجتماعية ، ويمكن القول كذلك أن الثعالي قدم اعتراضات وجدل وفق براهين قانونية ومنطقية مع الكشف وإثبات أن تشريعات المستعمر⁵⁰ ماهي إلاّ حجج ومزاعم وقرارات سياسية فوقية ظالمة أكثر مما هي نصوص قانونية .

ومن زاوية أخرى ربط الثعالي بين العدوان الاستعماري ومختلف أوجهه الاستغلالية ، ومن ذلك أنه كشف عن توجيه الاقتصاد التونسي لصالح الاستعمار من حيث النظام الضريبي والنظام المالي الذي يشجع المعمر ويخدم الاقتصاد الفرنسي⁵¹ .

وأوضح في هذا الإطار ، بأن الشركات المنجمية وشركات الفوسفات وكل شركات المشاريع الكبرى الخاصة بالأشغال العامة والموانئ وكل الأشغال ذات المصلحة العامة هي مضخات هائلة تمتص رؤوس الأموال والمنتجات كي تدفع بها إلى للخارج .

ومما يلاحظ و أنّ للثعالي كانت له القدرة على إبراز ظاهرة الاستغلال الاستعماري بطريقة مميزة ومختصرة فقد صور عملية الاستيلاء على الأراضي

وهكذا يكون الثعالي قد برهن -من خلال تبيان- حقيقة دور الجهاز القضائي بأن القانون في البلاد التونسية لا يكتسي إلا قيمة دلالية وليس له أية صفة إلزامية فيسود حينئذ انعدام الأمن القضائي والاجتماعي ، ذلك أن حكومة الاحتلال جعلت من الجهاز القضائي أفضل وأضمن أدوات السيطرة العدوانية .

ويُعبّر هذا النموذج أيضا على أنّ الثعالي سلك طريق البرهان والحجة مما يعني أنه بحث في الواقع الاستعماري بتونس بعمق، ومما يلاحظ بأنه في كل مرة كان يعرض القوانين التي أعدها الاستعمار لكي يضيف الشرعية على ممارساته في المجالات المختلفة ، ثم يبرهن على أن هذه القوانين واهية ومتناقضة وليس لها قوة بالمفهوم القانوني .

كما استند الثعالي بشكل واضح على عرض واقع تاريخ تونس قبل الاحتلال⁴⁹ ومقارنة ذلك بواقعها تحت الإدارة الاستعمارية ، من حيث عرضه للتشريع الاسلامي الذي كان سائدا وقتئذ مع تفسيره وتبيان بعده الحضاري ونظرته إلى الاقتصاد والقضاء والأحوال

الاجتماعية تعرضت للاستغلال الاستعماري بشكل أو بآخر، من حيث تبيانه لسياسة التفجير على أنها كانت شرط أساسي للمستقبل الاستعماري والهيمنة الاستعمارية، ولذلك أثقل كاهل الصناعيين الحرفيين التونسيين بالضرائب ومنعوا من إقامة شركات صناعية⁵⁴.

وبين أيضا أن ظاهرة الاستغلال لم تنج منها حتى النساء، فخلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918) دفعت بهم الحكومة الاستعمارية إلى المعامل لصناعة ألبة الجيش الفرنسي مقابل أجر زهيد⁵⁵.

وكشف الثعالي عن مدى الاستغلال الذي كان يتعرض له العمال التونسيون وخاصة في مناجم الفوسفات بقفصة حيث أن أوضاع العمل المزرية كانت تتسبب في وفاة الآلاف منهم، وتعرض الأحياء منهم للعاهات والأمراض الخطيرة نتيجة غياب وسائل الوقاية والأمن من المتفجرات المستعملة في المناجم، يضاف إلى ذلك المعاملة السيئة التي يتعرض لها العامل من طرف شرطة

التونسية على أنها ((أخطبوطا رأسه في تونس العاصمة مقر الحكومة، واذرعه الضخمة المنقسمة إلى فرعين قد استدارت إلى قوسين، يمر الأول من المنطقة الشمالية ثم يتزل في اتجاه تالة، ويمر الثاني من شاطئ الساحل متجها نحو قفصه ومقتفيا أثر الأراضي الشاسعة التابعة لشركة الفوسفات وعند ذلك تضيق الدائرة وتحاصر من كل الجهات منطقة الوسط حيث تتحرك جماهير الفلاحين وتتجمع دون أمل في النجاة من هذا الاختناق الذي يستهدف شعبا بأكمله))⁵².

وفي سياق متصل عرض الثعالي خريطة توزيع العمران الاستعماري في تونس في ميادين السكن، وطرق المواصلات والري الزراعي، حيث تشمل هذه الخريطة المراكز الاستعمارية دون المناطق التي يقطنها التونسيون لبيان أنها جاءت أساسا لأسباب اقتصادية واجتماعية وأخرى استراتيجية عسكرية، ولغايات سياسية تؤول في النهاية لتثبيت جذور الاستيطان والاستغلال الأوربي في تونس مقابل إقصاء الشعب التونسي⁵³، وبرهن الثعالي على أن مختلف الفئات

التعرض لنظام الحماية الفرنسية وممارساته منذ عام 1881 ، وذلك من خلال كتابه تونس الشهيدة وكانت له نظرة ثاقبة مكنته من كشف القناع عن نظام " الحماية " ، و من خلال تبيان خلفيات وأبعاد هذه الظاهرة ، برهن الثعالي على أن الاستعمار ليس هو التوسع السياسي والعسكري فقط ولكنه يمثل أيضا مختلف مظاهر الروح الصليبية و العدوان و الاستغلال المنظم ، والعنصرية ، ومسح الذاتية والشخصية الوطنية .

ويلاحظ أن الثعالي اتبع منهج يستند على الحجج التاريخية ، وهذا يعني انه أحسن اختيار الوسيلة التي يواجه بها الاستعمار ، واعتمد منهجه كذلك على تقديم الدلائل والبراهين بالأرقام والإحصاءات وبالمقالات والخطب التي كان يقدمها الاستعماريون انفسهم ليكونوا حجة على انفسهم وذلك لتبرير ما يطرح من أفكار وآراء وما ينشر من قضايا مختلفة .

الهوامش:

وأعوان المناجم حيث أن ريع العمال تعرضوا للجرح بسبب الضرب الذي تلقوه من طرف هؤلاء⁵⁶.

كما أوضح ظاهرة استغلال الشباب من خلال تجنيدهم في الجيش الفرنسي وإفساد أخلاقهم أثناء تأديتهم "الخدمة العسكرية" ، بالإضافة إلى نشر الآفات المختلفة وعلى رأسها تعاطي الكحول بفعل ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية المزرية ، حيث أصبحت تلك الآفات عاملا مساعدا قويا للحكومة الاستعمارية في سبيل تحقيق إنجازاتها الاستعمارية ، كونها تؤدي إلى انحلال النظام الاجتماعي والفساد وفقدان الانضباط والتماسك العائلي والاجتماعي وبالتالي فهي مصدر لإضعاف الطاقات الشابة وروح المقاومة الوطنية⁵⁷.

خاتمة

قام الثعالي بدراسة وتشريح الظاهرة الاستعمارية في تونس ، من خلال

¹ حول ترجمته أنظر مثلا :

⁶ حول ظروف حيثيات اصدار هذا الكتاب طالع :

- Rodd Balek , La Tunisie après la guerre (problèmes politiques)Publication du Afrique. Française ,paris ,1920.pp 51-77.

⁷ تعرف بمعاهدة باردو أو معاهدة قصر السعيد تم توقيعها بتاريخ 12 ماي 1881 بين ممثل فرنسا وباي تونس محمد الصادق باي، و من بين ما نصت عليه هو أن حق إشراف الدولة الفرنسية على تونس في المجالات المالية والخارجية والعسكرية ، للمزيد عن فحوى هذه المعاهدة طالع مثلا :
- E. Rouard de Card, Traités de l'Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc. A. Pédone, Éditeur, Paris, 1906,p232.

⁸ Ministère des affaires étrangères ,Rapport au président la république sur la situation de la tunisie(1881-1890),Imprimerie nationale,paris ,1890, Pp 5-11.

⁹ عبد العزيز الثعالبي ، تونس الشهيدة

- صالح الخرفي ، عبد العزيز الثعالبي من أخباره وأثاره في المشرق والمغرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1995
² عن هذه الحركة أنظر مثلا :

- Charles-André Julien, Colons français et Jeunes-Tunisiens (1882-1912). In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 54,n°194-197, Année 1967, pp. 87-150.

³ حول دور الثعالبي في الحزب الدستوري التونسي ، طالع :

- يوسف مناصرية ، الحزب الحر الدستوري التونسي (1934-1920) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1988..

⁴ عن مؤلفاته أنظر :
- عمر رضا كحالة ،المستدرك على معجم المؤلفين ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1975، ص12.

⁵ Michele Branicaire, le maghreb ou cœur des crises, imp des montsd du loyommais ,1994,p37

¹⁴ الثعالبي ، المصدر السابق ، ص 64-70.

¹⁵ نفسه، ص 167.

¹⁶ أنور الجندي ، المرجع السابق ، ص 220.

¹⁷ من مظاهر هذه السياسية من خلال إصدار السلطة الاستعمارية الفرنسية بتونس قانون 20 ديسمبر 1923 حول التجنيس ، وكان الهدف منه محاربة الهوية العربية الإسلامية من جهة ومن جهة أخرى مجابهة النفوذ الإيطالي بتونس ، وافر هذا القانون تسهيلات للأوربيين القاطنين بتونس للحصول على الجنسية الفرنسية وكذلك هو المر بالنسبة للتونسيين ، للمزيد أنظر :

- المحجوبي علي، الحركة الوطنية التونسية بين الحربين ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس 1986. ، 81.

¹⁸ أنور الجندي ، المرجع السابق ، ص 41.

¹⁹ المؤتمر الافخارستي : نسبة الى سر الأفخارستيا أو سر التناول أو القربان المقدس هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية أو أحد السرين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية وحسب معتقداتهم وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشية آلامه

، ترجمة حمادي الساحلي ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1984 . ص 167

¹⁰ المصدر نفسه ، ص 140.

¹¹ أنور الجندي ، عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية 1879-1944، ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص 47.

¹² الثعالبي ، المصدر السابق ، ص 64.

¹³ المعهد الصادقي : اوالمدرسة الصادقية أسسها المصلح خير الدين التونسي حيث فتحت ابوابها عام 1875 ، وهي مدرسة ذات طابع عصري ، أدخلت فيها العلوم الحديثة ، إلى جانب اللغة العربية و اللغات الأجنبية ، للمزيد طالع مثلا :

- Sraïeb Noureddine , Le collège Sadiki de Tunis et les nouvelles élites. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, N°72, 1994. Modernités arabes et turque: maîtres et ingénieurs. pp. 37-52. [En ligne] , consulté le 26 avril 2018. URL:

http://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1994_num_72_1_1651.

- ويُحتفل بها في جماعة المؤمنين لأنها التعبير المرئي للكنيسة. الاحتفال يكون بصيغة تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز تعرف بالبرشان التي تمثل جسد يسوع وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع ، أنظر :
- صبري المقدسي، مفهوم القربان المقدس (الافخارستيا) في المسيحية ، صحيفة الحوار المتمدن ، العدد 4314 (موقع الكتروني) زيارة بتاريخ 23 / 12 / 2013 ، الرابط : <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=392539>
- ²⁰ Jacques Alexandropoulos, « Entre archéologie, universalité et nationalismes : le trentième congrès eucharistique international de Carthage (1930) », Anabases [En ligne], mis en ligne le 01 mars 2012, consulté le 26 avril 2018. URL :
- <http://anabases.revues.org/343>
- ²¹ الثعالبي ، المصدر السابق ، ص 167.
- ²² أنور الجندي ، المرجع السابق ، ص 269.
- ²³ الثعالبي ، المصدر نفسه، 72.
- ²⁴ نفسه ، ص ص 79-80.
- ²⁵ تم إنشاء هذه المدرسة بموجب مرسوم اصدره باي تونس في أفريل 1898 ، بينما تم توقيع خطط المدرسة الجديدة من قبل رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك إميل لوبيه (Émile Loubet) في 28 أبريل 1903 ، كما تم تحديث المدرسة وتدشينها في 3 أكتوبر 1905.
- للمزيد أنظر :
- Les Etablissements D'enseignement Technique ، Bulletin Economique et Social de la Tunisie , Document pdf , p55, [En ligne], consulté le 26 avril 2018. URL :
- <http://best.mmsh.univ-aix.fr/Pdf/1951-051-1095.pdf> .
- ²⁶ الثعالبي ، المصدر نفسه ، ص 204.
- ²⁷ نفس المصدر والصفحة.
- ²⁸ نفسه ، ص 189.
- ²⁹ نفسه ، ص 37.

³⁰ نفسه ، ص 54.

³¹ المستشفى الصادقي : كان يعرف بيمارستان العزافين (من فعل عزف) ، أقدم مستشفى بمدينة تونس بتاريخ 1662 أصبح وقفا للأميرة عزيزة عثمانة وحمل اسمها بعد ذلك ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، صدر مرسوم من طرف محمد الصادق باي بتاريخ 5 فيفري 1879 . وقد نص ذلك المرسوم على إنشاء مستشفى لمعالجة الفقراء والمعوزين. و اعتمد فيه قانونا أساسيا متطورا يضبط مختلف الحياة داخل المستشفى وأصبح يسمى بالمستشفى الصادقي ، و المستشفى لا يزال موجوداً في الوقت الراهن وهو مستشفى عصري بشارع القصبة رقم 101، للمزيد أنظر:

- le Site officiel de l'hôpital Aziza Othmana [En ligne], consulté le 26 avril 2018, URL : <http://hopital-aziza-othmana.tn/historique/>.

³² الثعالبي ، المصدر السابق ، ص

227.

³³ نفسه ، ص ص 39-41.

³⁴ نفسه ، 181.

³⁵ نفسه ، 182.

³⁶ نفسه ، 183.

³⁷ عن تفاصيل هذا الخطاب طالع مثلاً :

- Paul Robiquet, Discours et Opinions de Jules Ferry , Tome 5, Armand Colin et Cie, éditeurs, paris, 1897.

³⁸ الثعالبي ، المصدر السابق ، 157

³⁹ عن تفاصيل هذه الإحصاءات انظر:

- المصدر نفسه ، ص 235.

⁴⁰ حول الاستغلال البشري لتونس في

الحرب العالمية الأولى طالع مثلاً :

- Arnoulet François. Les Tunisiens et la première guerre mondiale (1914 - 1918). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°38, 1984, pp. 47-61. [En ligne] , consulté le 26 avril 2018. URL :

http://www.persee.fr/doc/remmm_0035-

1474_1984_num_38_1_2044

⁴¹ الثعالبي ، المصدر السابق ، ص

152.

⁴² نفسه ، ص 37.

في المجال الفلاحي وقطاع المناجم ، ونسدل على ذلك بأرقام الاستغلال الاستعماري في تونس ، للتوسع طالع مثلاً :

- S. Ferdinand-Lop , La Tunisie ses richesses , Éditions Pierre Roger , paris , sd .

⁵² الثعالبي ، المصدر السابق ، ص

165.

⁵³ نفسه ، ص ص 177-179.

⁵⁴ نفسه ، ص 199.

⁵⁵ نفسه ، ص 188.

⁵⁶ نفسه ، ص 265.

⁵⁷ نفسه ، ص 207-217.

⁴³ الكتابة العامة للحكومة التونسية : جهاز إداري كرسه نظام الحماية الفرنسية في تونس ، ويديره الكاتب العام لحكومة الحماية وكان يضم مصلحة موظفي الإدارة المركزية والمحلية وإدارة مصالح الصحة والبلديات والأوقاف والتعليم العربي والقضاء ، للمزيد أنظر :

- الثعالبي ، المصدر السابق ، ص 48

⁴⁴ نفسه ، ص ص 47-50.

⁴⁵ نفسه ، ص 93.

⁴⁶ نفسه ، ص 102.

⁴⁷ نفسه ، ص 111.

⁴⁸ نفسه ، ص 111.

⁴⁹ نشير هنا إلى أن اعتمد الثعالبي على مؤلفات بيرم الخامس (صفوة الاعتبار) وابن أبي الضياف (إتحاف أهل الزمان) أثناء عرضه لواقع تونس قبل فرض الحماية الفرنسية 1881 .

⁵⁰ أورد الثعالبي مجموعة من التشريعات والقوانين التي أصدرتها حكومة الحماية الاستعمارية بتونس ، أنظر :

- المصدر نفسه ، ص ص

130، 50، 49، 45، 44، 40، 36.

⁵¹ نسجل هنا بأن تونس خلال فترة

الحماية كانت غنية اقتصاديا وخاصة وخاصة